الرقم الدولي الموحد للدوريات 0330-8081

المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية

السنة الثامنة والعشرون العدد 55 - 56 ديسمبر/ كانون الأول 2017

منشورات
موسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس

ومتابعة الدرس والتحصيل (2). فبعد أدائهم فريضة الحج وعودتهم عن طريق العقبة باتجاه مصر، كانَ بعض الحجاج المغاربة يستغلون قرب المسافة بين العقبة وفلسطين فيفترقون عن ركب الحج عند افتراق ركب الحج الشامي عن ركب الحج المصري، ويتجهون نحو القدس برًّا عبر غزة أو الخليل.

حياة العياشي :

هو أبو سالم عبد الله محمد بن أبي بكر العيّاشي، عرف بهذا اللقب نسبة إلى قبيلة آيت عياش بسجلماسة وهي قبيلة بربرية تقع بلادها في الجهة الجنوبية الشرقية من المغرب الأقصى. ولد في شعبان سنة 1037هـ/أيار 1628م في قرية تازروفت الواقعة في الأطلس الكبير على ضفة أحد روافد نهر زيز. ويقال إن العياشي عربي الأصل من قبيلة الأدارسة. وقد تربى على يد أخيه الأكبر عبد الكريم بن محمد وعدد من المشايخ كانَ منهم الشيخ أبو بكر بن يوسف الكتاني والشيخ أبو عبد القادر الفاسي. وقضى أكثر عمره في الزاوية العيّاشية التي أسسها والده عام 1044هـ/1634م ثم أخذ يشتغل بتدريس العلم والتربية للمريدين على نهج والده (3). كما أخذ عن عدد من المشايخ واستجازهم وأجاز لهم، وقد دون أسماءهم في كتابيه إتحاف الاخلاء واقتفاء الأثر (4).

ترك العياشي عددًا كبيراً من المؤلفات في أنواع شتى من المعرفة اشتملت على العقيدة والحديث والفقه والتراجم والتصوف والمدائح النبوية والمناسك والنحو وعلم الكلام، ومنها "إظهار المنة على المبشرين بالجنة"، "مسالك الهداية"، "إتحاف الاخلاء بإجازات المشايخ الأجلاء"، "إرشاد المنتسب إلى فهم معونة المكتسب"، "تنبيه ذوي

---

(2) **المرجع نفسه**، ص 34.

(3) خير الدّين الزركلي، **الأعلام**، 8 مجلدات، دار العلم للملايين، بيروت، 2002م، ج 4، ص 129. ولمزيد من التفاصيل حول حياة العياشي انظر : محمد أمحزون، **المدينة المنورة في رحلة العياشي**، دار الأرقم للنشر والتوزيع، الكويت، 1988، ص47-50. عواطف محمد يوسف نواب، **كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين**، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، 2008، ص45-59.

(4) أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي، **الرحلة العياشية 1661-1663**، مجلدين، تحقيق سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2005، م1، ص30.

الهمم العالية على الزهد في الدنيا الفانية"، "معارج الوصول"، "اقتضاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر"، وأخيرًا "ماء الموائد" أو الرحلة العياشية (5).

رحلاته :

قام أبو سالم العياشي بثلاث رحلات إلى الجزيرة العربية، كانت الرحلة الأولى عام 1059هـ/1646م. أما الرحلة الثانية فقام بها عام 1064هـ/1653م، بينما قام بالرحلة الثالثة وهي التي تهمنا وأطلق عليها "ماء الموائد" عام 1072هـ/1661م.

استغرقت رحلته نحو سنتين، فقد كانت بدايتها يوم الخميس الأول من ربيع الثاني عام 1072هـ/24 تشرين ثاني 1661م. وانتهت يوم الأربعاء السابع عشر من شوال عام 1074هـ/13 أيار 1664م. زار خلالها عددا من المدن والمناطق في ليبيا ومصر والأردن (العقبة) والحجاز وفلسطين.

وتتمثل العوامل التي دفعت العياشي بالتوجه نحو المشرق الإسلامي في عاملين هما: الفتنة التي عصفت ببلاد المغرب الأقصى في أعقاب وفاة السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي، وما ترتب عنه من عجز السلطة المركزية وضعفها من واقع مؤلم، أما العامل الثاني فيتمثل في الرغبة العلمية في زيارة الأماكن الدينيّة المقدسة والالتقاء مع علماء المشرق الإسلامي وبخاصة في مدن مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس (6).

وتكمن أهمية رحلة العياشي في أنها ديوان علم وأدب، وسجل تاريخ وتصوف وكتاب أخبار وآثار، فقد أوردت الكثير من النصوص والرسائل والإجازات وترجمة لعدد من الأعيان، وعبر عن ذلك العياشي بأن المقصود من كتابة رحلته هذه هو "**أن تكون ديوان علم لا كتاب سحر وفكاهة، وإن وجد الأمران فيها معًا فذلك أدعى لنشاط**

---

(5) **الرحلة العياشية**، م1، ص30-31. وللاطلاع على قائمة المؤلفات التي تركها انظر :أمحزون، المدينة المنورة، ص55-60.

(6) إبراهيم القادري بوتشيش، **العادات والتقاليد في المدينة المنورة من خلال الرحلة العياشية (القرن 11هـ/17م)**، مجلة التاريخ العربي، العدد 52، ص4.

والقصص الّتي رددها رواة الأدب الشعبي عن بعض الأماكن وبخاصة الدينيّة منها، فلدى زيارته لمدينة اللّدّ قال بأنه من الغرائب التي شاهدها فيها بأن المسجد الأعظم فيها كان "**بالأصل كنيسة وصار اليوم نصفه مسجد ونصفه كنيسة، تسمع أصوات كلّ من المحلين في الآخر، وزعموا أن سبب ذلك أن المسلمين في وقت فتح البلد دخل بعضهم من ناحية صلحًا، وبعض من الناحية الأخرى عنوة، فاجتمعوا في وسط الكنيسة، فصار نصفها مسجدا والنصف الآخر كنيسة، والله أعلم**" (13). ولم يصدق الرواية التي تقول بأنه يوجد في المسجد الأقصى رأس عامود من رخام من جدار المسجد يقولون إنه رأس الصراط المنصوب على جهنم، ويعبر عن ذلك بقوله "**وهو لا أصل له**" (14). ولم يصدق العياشي الرواية التي تقول بأن النبي موسى عليه السلام يوجد في المقام المعروف بمقام النبي موسى (15)، وعبر عن ذلك بقوله "**وإن لم يرد أثر صحيح في أن ذلك قبره" ولم يشتهر ذلك المكان في العهد القديم ولا في صدر الإسلام، وإنما بناه وأظهره المتأخرون من الملوك، وأظن ذلك كانَ في المائة السادسة أو السابعة بإشارة أهل الكشف**" (16).

وانتقد العياشي الرواية التي تقول بأن هاشم بن عبد المطلب جد الرسول صلّى الله عليه وسلم مات بغزة ودفن فيها لذا فإن غزة تنسب إليه فيقال غزة هاشم، غير أن العياشي يستبعد ذلك بقوله: "**إلاّ أنه يبعد تعيين قبر عربي مات في زمن الجاهلية بأرض غربة في أرض العجم ويستمر تعيينه إلى زمننا هذا، ولا شك أن هاشمًا**

---

(12)**المصدر نفسه**، م2، ص425.

(13) **المصدر نفسه**، م2، ص419.

(14) **المصدر نفسه**، م2، ص422.

(15) مقام النبي موسى : ويقع على مسافة 8 كم جنوب مدينة أريحا ويبتعد نحو 28كم عن مدينة القدس باتجاه الشرق. أنشئ في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي من قبل السلطان المملوكي الظاهر بيبرس. ويعد موسم النبي موسى من أهم المواسم والمهرجانات الشعبية لدى الفلسطينيين، فقد كانوا يحتفلون به في كل عام خلال شهر نيسان لمدة أسبوع. كامل العسلي، **فلسطين في كتابات عبد الله مخلص**، دار الكرمل، عمان، 1986، ص134-139. **الموسوعة الفلسطينية**، القسم العام، 4 مجلدات، هيئة الموسوعة الفلسطينية، دمشق، 1984، م1، ص566.

(16) **الرحلة العياشية**، م2، ص425.

الناظر فيها سيما إن كان صاحب تكوين، وأما صاحب التمكين فلكل شيء عنده موقع ونفع لا يوجد في غيره" (7).

وقد نجح العياشي في تحقيق ذلك، فكانت رحلته شاملة لمختلف الجوانب الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمناطق التي زارها، فغدت هذه الرحلة مصدرًا تاريخيًا هامًا ينهل منه الباحثون للتعرف على أحوال المشرق الإسلامي خلال منتصف القرن السابع عشر الميلادي.

لقد جال العياشي في فلسطين خلال الفترة ما بين السابع من صفر عام 1074هـ/10 أيلول 1663م وحتى السابع من ربيع الأول/9 تشرين أول من العام نفسه. فيكون بذلك قد أمضى شهرًا كاملاً، وزار خلال هذه الفترة مدن غزة والرملة واللّدّ والقدس والخليل، ومكث في مدينة القدس ثمانية أيام، بينما مكث في غزة أربعة عشر يومًا وفي الرملة أربعة أيام والخليل ثلاثة أيام ويومًا واحدًا في قرية السوافير لدى توجهه من الخليل إلى غزة.

مصادره :

اعتمد العياشي على غرار الكثير من الرحالة العرب الذين زاروا المنطقة على مشاهداتهم الشخصية علاوة على ما استقصوه من معلومات من الناس في المناطق التي كانوا يزورونها.

ويلاحظ أن العياشي في الجزء المخصص لفلسطين برحلته قد اعتمد بشكل كلي على المشاهدات الشخصية له دون أن يرد أي من المصادر الأخرى، إضافة إلى اعتماده أيضًا وبشكل قليل على الناس الذين كانَ يلتقيهم في الأماكن الّتي زارها، وفي هذه الحالة كانَ يقول **"وأخبرنا"** (8) و**"وقد ذكر بعضهم"** (9) و**"على ما أخبروا"** (10) و**"قالوا"** (11) و**"مما ذكروا"** (12). ولم يكن العياشي يصدّق بعض الروايات

(7) **الرحلة العياشية**، م2، ص13.
(8) **المصدر نفسه**، م2، ص115.
(9) **المصدر نفسه**، م2، ص423.
(10) **المصدر نفسه**، م2، ص424.
(11) **المصدر نفسه**، م2، ص424.

رئيسًا في قومه، جوادًا سخيًا ممدحًا عظيمًا في قريش، لا تجهل مكانته، والعرب كانت تعتني بتعظيم مقابر عظمائها، فلو كانَ في بلاد العرب فأبعد كلّ البعد أن يتعين في الجاهلية ثم يبقى كذلك في الإسلام لمكانته من رسول الله صلّى الله عليه وسلم" .(17)

الاهتمام بتحديد الأوقات والتواريخ :

إن ما يلفت النظر في رحلة العياشي إلى فلسطين اهتمامه بتحديد الأوقات والتواريخ اهتمامًا كبيرًا، إذ اهتم بالزمن خلال تجواله في مختلف المناطق، وهذا ما يميزه عن كثير من الرحالة الذين زاروا المنطقة خلال العهد العثماني.

إذ اكتفوا بالإشارة إلى أيام رحلتهم ووصف ما يشاهدونه أو يزورونه في كلّ يوم من أيام الرحلة، ويتضح ذلك بشكل جلي في رحلة الشيخ عبد الغني النابلسي المسماة "الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية" (18).

ويبدو أن الصيف خلال زيارة العياشي كانَ حارًا، فذكر بأنهم وضعوا على رؤوسهم خلال توجههم من الرملة إلى القدس "مظلة من الدوم أو من جريد النخل كنا نتقي بها من حر الشمس" (19).

وحرص العياشي على تحديد الزمن تحديدًا دقيقًا عبر تجزئة الليل إلى ثلاثة أقسام، ويظهر ذلك بقوله "**ووافينا ذروتها قريبًا من ثلث الليل الأول...**" (20) ويقول أيضًا "ولم نزل نسير تلك الليلة إلى قريب من ثلث الليل الآخر" (21). وفي موضع آخر يقول "**فلما كانَ الثلث الأول من الليل دخلنا في جبال وعرة، وسلكنا في عقاب إلى**

---

(17) **المصدر نفسه**، م2، ص414.

(18) وقد قام بها إلى القدس في شهر جمادى الآخرة سنة 1101هـ/آذار 1641م، واستمرت شهرين. وقد تمّ تحقيق هذه الرحلة من قبل أكرم العلبي، وصدرت الطبعة المحققة عن دار المصادر ببيروت سنة 1990م.

(19) **الرحلة العياشية**، م2، ص420.

(20) **المصدر نفسه**، م2، ص406.

(21) **المصدر نفسه**، م2، الصفحة ذاتها.

آخر الثلث الثاني" (22). وعندما خرجوا من مسجد في خان أسدود (23) للتوجه إلى الرملة يقول "**ثم ارتحلنا منه نصف الليل ونزلنا الرملة حين ارتفعت الشمس**" (24).

كما يحدد الوقت خلال النهار، فيقول "**وفي الغد ارتحلنا بعد ما طلعت الشمس وارتفعت**" (25). وعندما وصلوا غزة دخلوها "**بعد طلوع الشمس**" (26). ويصف خروجهم منها بقوله "**ولم نخرج من فناء المدينة حتى متع النهار جدًا**" (27). وفي موضع آخر يقول "**ثم ارتحلنا عند العصر ومررنا بموضع يسمى الرابية عند الاصفرار**" (28). وعبر عن وصولهم إلى خان يونس بقوله "**ووصلنا إلى الخان بين الظهرين**" (29). ونراه أحيانًا يحدد الزمن بناء على أوقات الصلاة، فقد وصلوا النقب "عند صلاة المغرب" (30). بينما كانَ دخولهم مدينة الخليل "قرب صلاة العصر" (31).

ويذكر العياشي في بعض الأحيان اليوم والوقت كقوله "**وفي اليوم الرابع ارتحلنا من الرملة صبيحة الأربعاء عند طلوع الفجر قاصدين القدس الشريف**" (32). ويستنتج من ذلك أنهم أمضوا في مدينة الرملة أربعة أيام. وخلال وجودهم في مدينة الخليل ذكر "**ولما كانَ صبيحة يوم الخميس ثاني يوم دخولنا**" (33).

---

(22) **المصدر نفسه**، م2، الصفحة ذاتها.

(23) ورد بطريق الخطأ في النسخة المحققة بخان أردود.

(24) **المصدر نفسه**، م2، ص415.

(25) **المصدر نفسه**، م2، ص404.

(26) **المصدر نفسه**، م2، ص407.

(27) **المصدر نفسه**، م2، ص462.

(28) **المصدر نفسه**، م2، ص407.

(29) **المصدر نفسه**، م2، ص465.

(30) **المصدر نفسه**، م2، ص406.

(31) **المصدر نفسه**، م2، ص457.

(32) **المصدر نفسه**، م2، ص420.

(33) **المصدر نفسه**، م2، ص430.

ونجده أحياناً يورد الوقت بشكل أكثر تفصيلاً كذكره اليوم والزمن في ذلك اليوم والشهر وتاريخ اليوم من الشهر، كقوله عند فراقهم لركب المغاربة في العقبة "**ارتحلوا صبيحة يوم الأحد التاسع والعشرين من محرم**" (34). ودعاه الشيخ عمر العلمي لزيارة داره في الخليل "**بعد عصر يوم الجمعة الثامن عشر من شهر صفر**" (35). غير أنه أحياناً يسقط ذكر الشهر كقوله لدى خروجهم من القدس متجهين نحو الخليل في "**ضحى يوم الأربعاء الثالث والعشرين**" (36). وإن كانَ ذلك في شهر صفر. وفي أحيان أخرى لم يحدد الوقت خلال النهار مكتفيًا بذكر اليوم وتاريخه والشهر فمثلاً التقى مع الشيخ خير الدين الرملي في الرملة "**يوم الاثنين الرابع عشر من صفر**" (37). ويضيف أحياناً عدد الأيام التي أمضاها في مكان معين كقوله عندما رحل من غزة "**وكانت إقامتنا بغزة خمسة أيام، وارتحلنا منها يوم السبت الثاني عشر من صفر**" (38).

الأماكن الدينيّة :

كانت زيارة الأماكن الدينيّة المقدسة الهدف الرئيس من رحلة العياشي إلى فلسطين، وبخاصة مدينتي القدس والخليل. فقد ارتبط تاريخ المغاربة بالقدس والخليل منذ الأيام الأولى التي اعتنقوا فيها الإسلام، لذا فقد شدتهم إليهما نفس الأواصر التي شدتهم إلى مكة والمدينة، فكان الحجاج المغاربة يمرون بفلسطين عند عودتهم من الحج لينعموا بزيارة مسرى الرسول صلّى الله عليه وسلّم ويحققوا الأجر في الرحلة إلى ثالث الحرمين (39). واستمرت رحلات المغاربة للقدس مرتبطة برحلاتهم إلى كلّ من

---

(34) **المصدر نفسه**، م2، ص404.

(35) **المصدر نفسه**، م2، ص403.

(36) **المصدر نفسه**، م2، ص457.

(37) **المصدر نفسه**، م2، ص415.

(38) **المصدر نفسه**، م2، ص414.

(39) عبد الهادي التازي، **القدس والخليل في الرحلات المغربية، رحلة ابن عثمان نموذجًا**، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، 1997م،

مكة والمدينة (40). وهكذا نجد العياشي قد حرص على أن يصف الأماكن الدينيّة التي زارها من مساجد ومقامات وقبور.

1- القدس :

كان وصول العياشي ورفاقه مدينة القدس وقت العصر، فصلوا صلاة العصر بقبة الصخرة، ووضعوا أغراضهم بزاوية المغاربة ثم انتقلوا إلى بيت قريب من رواق الشيخ منصور، ويقصد على الأرجح الرباط المنصوري المنسوب للملك المنصور قلاوون بباب الناظر (41).

أخذ العياشي بعد ذلك بوصف الحرم القدسي، إذ يحتوي على أشجار كثيرة من التين والزيتون، ويوجد تحت كلّ شجرة مصطبة مبنية بالحجر المنحوت على قدر ما تظله أغصان الشجرة، وفيه محاريب يجلس الناس تحتها للصلاة والقراءة، واهتم العياشي بمعرفة طول الحرم وعرضه، فذكر بأن طوله من الجهة الشرقية ستمائة ذراع وخمسة وستون ذراعًا بالذراع المالكي (42)، بينما يبلغ عرضه أربعمائة ذراع وستين ذراعًا، ويضم الحرم عددا من الأروقة (43).

وينتقل بعد ذلك لوصف قبّة الصخرة لقوله "**وفي وسط المسجد قبّة الصخرة ماثلة في الهواء مثمنة الشكل، لها أربعة أبواب دون القبة، كلها نحو من خمسمائة قدم. وحيطان القبة وأرضها كلها مزخرفة بأنواع الفسيفساء المصبوغة بأصباغ مختلفة ونقوش عجيبة... وشكلها فيه استدارة يغلب عليه الطول وغلظها نحو من ذراعين، وعلى ظهر الصخرة ندوب ومربعات صغيرة وكبيرة**" (44).

---

(40) **المرجع نفسه**، ص14.

(41) العسلي، **بيت المقدس**، ص86.

(42) الذراع المالكي : والأرجح أن يكون الملكي وهو وحدة قياس تقليدية لقياس الطول. ومن الممكن أن يكون القصد هنا ذراع البنا أو الذراع المعمارية وكانت تساوي 75سم. فالترهنتس، المكاييل والأوزان الإسلاميّة وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، 1970م، ص90.

(43) **المصدر نفسه**، م2، ص421.

(44) **المصدر نفسه**، م2، ص421.

ويلاحظ أن العياشي ركز على وصف قبّة الصخرة دون المسجد الأقصى الذي ذكر بأنه كانَ مسقوفًا وتقام فيه صلاة الجمعة، ووصف بناءه بأنه من أرفع الأبنية وذكر بأنه يوجد تحت المسجد الأقصى مسجد آخر واسع مرفوع على أساطين من حجارة منحوتة من البناء السليماني (45) ولم يشر إلى هندسته العمرانية ومقاييسه كما ذكر لدى وصفه قبّة الصخرة.

ومن الأماكن التي زارها العياشي خارج الحرم كانَ طور زيتا ومقام رابعة العدوية وهو في مغارة تحت الأرض، أما قبر مريم فيوجد في كنيسة أسفل الوادي ويتولى النصارى الإشراف عليها، لذا فلم يدخلها. وأشار أيضًا إلى عين سلوان ولم يصلها أيضًا واكتفى برؤيتها والشرب من مائها (46).

ومن المزارات التي زارها العياشي قبرا الصحابيين الجليلين شداد بن أوس وعبادة بن الصامت رضي الله عنهما ويقعان تحت سور المسجد الأقصى الشرقي. كما زار أيضًا موضعا بالقرب من باب حطة يُقال إن فيه عرش سليمان (47).

أما في خارج المدينة فقد زار مزارا يُقال إن فيه قبر داود عليه السلام، وكانَ هذا المكان بأيدي النصارى فاستخلصه منهم الشيخ محمد العلمي (48).

أما مقام النبي موسى، فقد عبر عن شوقه لزيارته إلاّ أنه لم يتمكن من ذلك لعدم أمان الطريق المؤدية له، ولا يوصل إليه إلاّ في قوة ومنعة. وقد نقل العياشي بعض القصص التي نسجت حول هذا المكان كحجر في حائطه يرى فيه الناظر صورا مختلفة (49) كما أخبر أيضًا ببعض الكرامات التي وقعت في هذا المكان، إذ يحكى بأن أعرابيًّا فقيرًا حضر إلى المقام ونادى بأعلى صوته قائلاً: يا نبي الله، يا كليم الله، إني فقير ومضطر، وقد أقبل الموسم ولا شيء عندي، فأعطني ما أنفق على بناتي، ثمّ مد يده فانفتحت له أبواب المقام التي لم تكن تفتح إلاّ في أوقات محددة وبحضور القيم

(45) **المصدر نفسه**، م2، ص422.
(46) **المصدر نفسه**، م2، ص423.
(47) **المصدر نفسه**، م2، ص424.
(48) **المصدر نفسه**، م2، ص25.
(49) **المصدر نفسه**، م2، ص429.

الذي يأتي خصيصًا من القدس، فأخذ الأعرابي الستر الموجود على المقام وباعه بأسواق الشام، وبعد إلقاء القبض على الأعرابي قصّ ما جرى معه فأطلق سراحه ولم يعاقب على فعلته (50).

2- الخليل :

تُعد الخليل ثاني المدن الفلسطينية أهمية من الناحية الدينية لدى المسلمين نظرًا لوجود الحرم الإبراهيمي فيها، لذا فقد حرص الكثير من الرحالة المسلمين على زيارتها للصلاة في الحرم الإبراهيمي ومقامات الأنبياء فيه، وبعد أن أنهى العياشي زيارته لمدينة القدس توجه نحو مدينة الخليل وقد وصلوها عند صلاة العصر، وكانَ في استقبالهم الشيخ عثمان وهو تركي الأصل ونائب قاضي القدس فيها، فزاروا قبر إبراهيم عليه السلام وقبور الأنبياء اسحق ويعقوب ويوسف عليهم السلام وقبور أزواجهم، وجميعها في مغارة تحت أرض المسجد، وفيها طاقة مفتوحة في وسط المسجد علقت فيها مصابيح توقد ليلاً ونهارًا، ويوجد في أرض المسجد شبابيك مقابل قبور الأنبياء مغطاة بستائر من ديباج باستثناء قبر يوسف عليه السلام والذي يقع في الركن الغربي بآخر المسجد في محل يغلق عليه ولا يفتح إلا في أوقات محددة (51).

ويذكر العياشي أنهم دخلوا الحرم الإبراهيمي اقتداء بمن أجاز ذلك من العلماء رغم أن الكثير من الأئمة المالكية تشددوا في ذلك انطلاقًا من أن "**قبور الأنبياء مقطوع بأنها هناك، ولا يعلم أعيانها، فكل محل يطأ فيه يمكن أن يكون هو موضع القبر، ولا يحل الجلوس والمرور على قبر مسلم، فكيف بقبر نبي**". غير أن العياشي برر ذلك من منطلق أن زيارة هذا المكان والصلاة فيه كانت منذ أن افتتحت البلاد، وتقام فيه صلاة الجمعة، كما أن الكثير من العلماء الأخيار كانوا يفدون إلى هذا المكان ويصلون فيه ويسمونه في كتبهم مسجدًا، فحكم المسجد لا يمنع أحدا من الدخول فيه (52).

(50) المصدر نفسه، م2، ص425.
(51) المصدر نفسه، م2، ص457.
(52) المصدر نفسه، م2، ص458.

3- غزة :

كانَ المسجد الكبير في غزة من أهم الأماكن التي زارها العياشي في المدينة ووصفه العياشي بأنه من أحسن المساجد رواء عالي البناء وفسيح المنظر، وله صحن مفروش بالمرمر والحجارة المنحوتة. وتوجد فيه دالية عنب امتدت أغصانها على إحدى جهاته فغطتها كليًا، وفيه أيضًا شجرتان كبيرتان من الزان "بسقتا في السماء بُسوقًا مُفرطًا كأنهما نخلتان سحوقتان"، وعلى يمين قبلة الصحن مسجد كبير مرفوع على سواري كبيرة من الحجارة المنحوتة، وهذا المسجد منفصل عن الصحن بشبابيك غريبة الصنعة، وتصادفت زيارة العياشي لهذا المسجد مع وجود عمال يقومون بتبييضه وتجديد نقوشه. ويذكر العياشي أن أصل المسجد كانَ كنيسة، غير أن المسلمين عندما افتتحوا البلاد حولوها مسجدًا، وسمع العياشي أهالي غزة يقولون بأن هذا المسجد كانَ كنيسة منذ عهد المسيح عليه السلام (53).

وفي الجهة المقابلة للمسجد توجد مدرسة تحتوي على رباط يجلس فيه المريدون يقرؤون خمسة أحزاب من القرآن الكريم كلّ يوم قبل طلوع الشمس، ويحتوي الرباط على مكتبة تضم عددا من الكتب العلمية، وقد بنى هذا الرباط والد الشيخ عبد القادر الغصين وحبس عليه أوقافًا ليتحصل منها نحو خمس قطع يوميًا (54).

4- الرملة واللّدّ :

يُعد الجامع الأبيض (55) من أهم المزارات الدينية في الرملة، وهذا المكان "مشهور الذكر عند الصوفية" ويوجد في صحنه مسجد تحت الأرض فيه مغارة يُقال بأن فيها جماعة من الأنبياء، وفي جانبه الغربي مسجد يُقال كما ذكر العياشي أنه متعبد

---

(53) **المصدر نفسه**، م2، ص408.

(54) **المصدر نفسه**، م2، ص409.

(55) الجامع الأبيض: ويقع في الجهة الغربية من مدينة الرملة، وقد أمر ببنائه الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، دمره الصليبيون عام 1099م، ثمّ أعاد بنائه صلاح الدين الأيوبي وجدده الظاهر بيبرس. مجير الدّين الحنبلي، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، مؤسسة الكتب الثقافيّة، 1999م، م2، ص69. عفيف البهنسي، **العمارة والزخرفة في فلسطين**، الموسوعة الفلسطينية، بيروت، 1990م، م2، ص818.

صالح عليه السلام، وفي الجهة الشرقية منه قبر الحافظ أبي عبد الرحمن النسائي صاحب السنن (56). ومن المزارات الأخرى في الرملة قبر الصحابي الفضل بن عباس عم الرسول صلّى الله عليه وسلم (57). ويقع بجوار مدينة الرملة اللّدّ التي زارها أيضًا العياشي، ومن المزارات التي زارها فيها قبر يُقال إنه للمقداد بن أسود الصحابي المشهور، ومشهد يُقال إنه لعبد الرحمن بن عوف، غير أن العياشي لا يتفق مع هذه الرواية بقوله "**إلاّ أن الصحيح أنه مات بالمدينة الشريفة**" (58).

الأوضاع العلمية :

كانَ الجانب الثقافي والعلمي من أكثر الجوانب التي اتضحت معالمها في رحلة العياشي فالتقط الكثير من الصور المتعلقة بهذا الجانب في المدن التيّ زارها بل كانَ هذا الجانب من أهم الجوانب التي حظيت باهتمامه، فالتقى عددًا من العلماء والفقهاء والقضاة، وحضر حلقات الذكر التي كانت تقيمها المتصوفة وبخاصة في مدينة القدس التي شهدت انتشارًا واسعًا للطرق الصوفية خلال العهد العثماني، وفي الفترة التي زار فيها العياشي مدينة القدس كانت اليد العليا لشيوخ الطرق الصوفية لا للعلماء، وكانت السيادة لحلقات الذكر الصوفية لا لمجالس العلم (59).

وكانت الأوضاع العلمية في فلسطين خلال زيارة العياشي مخيبة لآماله وعكس توقعاته ويظهر ذلك لدى زيارته لمدينة القدس والتقائه بالشيخ شهاب الدين الحنبلي المصري الذي قدم إلى القدس من مصر، وقد سمع عنه العياشي خلال وجوده في الرملة وغزة بأنه عالم من علماء القاهرة أخذ يدرس الحديث بالقدس، وقد بالغ الناس في الثناء عليه ومدحه، وقيل بأنه متبحر بالعلوم الشرعية، ما دفع العياشي للاجتماع به، فتبين له من لقائه بأن ليس عنده تحصيل، وتناقش معه في بعض المسائل الدينيّة منها تفسير كلمة التروية والمنسوبة إلى يوم التروية وهو يوم قبل عرفة، وفسر الحنفي أن كلمة التروية مشتقة من الرؤية، ما دعا العياشي لتفنيد ذلك، وذكر بأن الكلمة من

---

(56) العياشي، **المصدر نفسه**، م2، ص419.

(57) **المصدر نفسه**، م2، ص418.

(58) **المصدر نفسه**، م2، ص419.

(59) العسلي، **بيت المقدس**، ص87.

مصدر تروى من الماء لأن الحجاج كانوا يترووون في هذا اليوم من الماء لعرفة، غير أن الحنفي رفض هذا التفسير وأصر على رأيه، ومن الأمور الأخرى التي تناقشا فيها ذكر فسخ الحج إلى العمرة، ويذكر العياشي بأن الشيخ الحنفي "**ممن طبع على قلبه وتبين لي جهله وغباوته، وإن ما انتشر له من الصيت إنما هو بغلبة الجهل على أهل تلك الديار وقلة المحصلين بها، فضلاً عن المحققين.... ومع ما عانيت من جهله وغباوته تعاميت عنه وأعرضت، ولم أرد فضيحته**" (60).

ويذكر العياشي أنه ذات مرة التقى مع هذا الشيخ بمنزل الشيخ محمد العلمي وحضر هذا اللقاء عدد من وجوه الناس، ولما لاحظ الشيخ الحنفي المصري الاهتمام الزائد الذي أولاه الشيخ محمد العلمي للعياشي حاول إحراجه أمامه وذلك بتفنيد ما ذكر له العياشي بشأن إحدى المسائل الفقهية زاعمًا بأنه لا يوجد ما يؤكد ذلك في صحيح البخاري كما ذكر له العياشي، ولحسن حظ العياشي فقد كانَ صحيح البخاري موجودًا في مكتبة العلمي فلما طلب الجزء المتعلق بموضوع النقاش وجد ما يؤكد صحة قول العياشي، فخرج من ذلك المجلس مدحورًا. وقفل راجعًا إلى مصر (61)، غير أن العياشي لم يلبث أن وجده فيما بعد بالخليل وغزة وخان يونس (62) وأثناء إقامة العياشي في الخليل التقى بالشيخ إبراهيم بن شهاب الدّين المروابني، إمام الحرم الإبراهيمي، ومع أن العياشي ذكر بأن هذا الشيخ يُعد من "فضلاء ذلك البلد، له ديانة ومروءة وأخلاق حميدة، ومشاركة في العلوم الشرعية" (63). إلاّ أنه كانَ يقيم مجلس الذكر بالحرم الإبراهيمي بعد الانتهاء من الصلوات "كما هي عادة أهل تلك البلاد كلها. فقد استبدلوا من مجالس العلم مجالس الذكر، فقلما يخلو مسجد من مجلس ذكر يرفع الصوت والجماعات والإنشادات على هيئة سماع الصوفية، إلا أن متعاطي ذلك أميّون أرباب دنيا، فقلّ بذلك العلم في هذه البلاد" (64).

---

(60) العياشي، **المصدر نفسه**، م2، ص428-429.

(61) **المصدر نفسه**، م2، ص429.

(62) **المصدر نفسه**، م2، الصفحة ذاتها.

(63) **المصدر نفسه**، م2، ص458.

(64) **المصدر نفسه**، م2، ص459.

وخلال وجوده بغزة التقى بعدد من المشايخ من بينهم الشيخ عبد القادر الغصن وقد قال عنه "**وغالب من له مشاركة في علم من العلوم يحضر عند الشيخ عبد القادر... وبالجملة فهو الملحوظ والمنظور إليه في البلد علمًا وصلاحًا وحسن سمعة وهدى، وهو ملجأ الواردين من العلماء والفقهاء وإليه يأوون، فهو محط رحالهم ومنتهى آمالهم**" (65).

وقد امتدحه العياشي بعدد من أبيات الشعر كانت "في الرتبة الوسطى من البلاغة" إلاّ أن الشيخ ابتهج بها وأطرى من كانَ في مجلسه عليها وتناقلوها بينهم، وينتقد ذلك العياشي بقوله "**وذلك لشغور البلد من أهل هذه الصناعة، بل وممن يحقق غيرها من العلوم، فإن أمثل ما فيها شيخنا هذا، إنما له مشاركة حسنة وديانة ظاهرة أكسبته وقارًا وهيبة ووجاهة عفت ما عسى أن يظهر أثره من قصور أو تقصير**" (66).

وانتقد قليلاً أيضًا قاضي الحنفية بغزة الشيخ عمر المشرقي وهو صهر الشيخ عبد القادر الغصين، وكانَ موالياً لآل الغصين، ما أكسبه "بذلك رياسة تولى بها خطّة القضاء فعظمت بها منزلته" (67). ويمدنا العياشي بمعلومات قيمة عن حياة بعض العلماء واهتمامهم بالمناصب بما فيهم الشيخ عمر المشرقي الذي كانَ على مذهب الإمام الشافعي، غير أنه تحول إلى الحنفي بعد وفاة قاضي الحنفية في غزة، حتى يتولى منصب القضاء، ويتابع العياشي قوله "**وغالب من يتمذهب بمذهب أبي حنيفة في هذه الأعصار وما قبلها بأزمان إنما ينتقلون لمثل هذه الأغراض، بل هذا من أحسنهم عذرًا لأنه ما انتقل إلاّ بعد أن احتيج إليه في ذلك المذهب، وغيره ينتقل رجاء التقرب إلى أرباب دولته، ولينال حظه يومًا ما من الدهر، وقد حذر العلماء حتى الحنفية بأنفسهم من الانتقال في المذاهب لأغراض سوى ظهور ترجيح المنتقل إليه، سيما إن كانت الأغراض دنيوية**" (68).

---

(65) المصدر نفسه، م2، ص411.

(66) المصدر نفسه، م2، ص412.

(67) المصدر نفسه، م2، ص413.

(68) المصدر نفسه، م2، ص413.

ومن العلماء الذين التقاهم العياشي في مدينة القدس كان قاضي القدس الشيخ محمد النفاتي التونسي، وكانَ قد قدم من إستانبول ليتقلد منصب قاضي محكمة القدس الشرعية، وذكر العياشي بأنه كانَ له وجاهة ومكانة لدى السلطان العثماني (69) والعسكر. وقد جاءته هذه الوجاهة من عهد أخيه الشيخ أبي الحسن النفاتي، وأضاف العياشي بأنه لم يكن للشيخ محمد النفاتي "قوة الحافظة العلمية، إنما هو مجرد ترسم ووجاهة اكسبته ذلك، إلاّ أنه ينتمي إلى الصلاح بسبب أسلافه، فيظهر الانخراط في سلكهم".(70)

غير أن العياشي أشاد بهذا القاضي لما لقي منه حسن استقبال وكرم ضيافة، ما دفع العياشي إلى مدحه بقصيدة مكافأة له على بره وكرمه قال فيها:

لقاضي قضاة القدس قدس سره — عُلو غدا فوق السما مستقره
تبدى بأفق الغرب من خير عثرة — هلالاً به قدما تشرق قطره
فصار بأفق الشرق يسري إلى العلا — ولم ينقطع حتى علا النسر سيره
غدا قمرًا فيه يضيء لقاصد — ولكنه في القدس قد تم بدره
تولى به دون البلاد لنسبة — يراها لبيب قد تهذب فكره
وذلك أن القدس أرفع بلدة — كما قد أتانا في الأحاديث ذكره
فاكرم به من عالم متبحر — بكل فنون العلم فالعدل أمره
وقد نال هذا الفضل إرثًا أتاه من — أبي الحسن المشهور في الناس خيره
تجده على نهج الإمام أخيه لا — يخالف فيه سره الدهر جهره (71)

أما العالم الثاني الذي التقاه العياشي بمدينة القدس وأشاد بعلمه فكان الشيخ عمر العلمي إمام الصوفية وابن إمامها في تلك الديار وهو حفيد العالم العامل الغوث الشيخ محمد العلمي، وذكر العياشي بأن هذا الشيخ (الجد) هو شيخ شيخه أبي بكر بن يوسف السكتاني حيث تلقى عنه الذكر الصوفي ومنحه الإجازة، وكان ممن أخذ عنه أيضًا الشيخ أحمد المقرّي صاحب كتاب "نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب"، وكان

---

(69) السلطان العثماني: وهو السلطان محمد الرابع الذي حكم خلال الفترة ما بين 1648-1687م.
(70) العياشي، **المصدر نفسه**، م2، ص425-426.
(71) **المصدر نفسه**، م2، ص427.

المقرّي هو الذي أشار على الشيخ أبي بكر بلقاء العلمي والأخذ عنه (72). وكانَ الشيخ عمر يقوم مقام جده في تربية المريدين وخلفه في وظائف الدين وترتيب حلقات الذكر، وكان يجلس للذكر كلّ ليلة مع جماعة كثيرة من الصخرة (73).

وقد أخذ العياشي على الشيخ عمر العلمي العهد، ولقنه وشدّ المئزر في وسطه، وأقعده وأقامه ثمّ أقعده وفقًا لمجالس الذكر الصوفي وخاطبه قائلاً اجلس مريدًا، وقم خادمًا للفقراء، واجلس مربيًا لهم، وكتب العياشي للشيخ عمر العلمي قصيدة امتدحه بها قال فيها:

جزى الله عنا كلّ خير أبا حفص إمام الهدى من للكمالات ذا قنص

فكم من مريد جاءه وهو ناقص فكلمه حتى غدا ليس ذا نقص

ولم لا وقد ولاه ذلك جده وطهره مما يشيق من الغمص (74)

والتقى أيضًا بكل من الشيخين محمود السالمي وقاسم إمام، وكلاهما من أتباع الطريقة الرفاعية (75)، وعقد معهما عقد أخوة في الله، وتكفلا له بالدعاء طوال حياتهما، وأعطى السالمي للعياشي ديوان الشيخ محمد العلمي الذي يحتوي على كثير من القصائد الصوفية. كما منحه أيضًا إجازة للطريقة الرفاعية، ومما جاء في نهايتها "انتهت الإجازة البهية على يد أضعف البرية، محمود السالمي القدسي، راجيًا دعوة بظهر الغيب من أستاذنا الشيخ الكبير المجيز، ومولانا وشيخنا المجاز، حفظهما الله تعالى آمين، وذلك آخر صفر الخير سنة 1074هـ" (76).

الأوضاع الاجتماعية :

التقط العياشي صورًا من الحياة الاجتماعية للأهالي في المناطق التي زارها، فقد تجلت في رحلته مجموعة من المظاهر الاجتماعية في المجتمع الفلسطيني.

---

(72) **المصدر نفسه**، م2، ص430.

(73) **المصدر نفسه**، م2، ص431.

(74) **المصدر نفسه**، م2، ص430.

(75) أبي القاسم سعد الله، **مع العياشي في رحلته إلى القدس**، ص12.

(76) العياشي، **المصدر نفسه**، ص438.

كانَ قضية إكرام الضيف وحسن الضيافة من القضايا التي لفتت انتباه العياشي وأشار بمواضع مختلفة من رحلته، فقد حظي العياشي ورفاقه منذ أن وطأت أقدامهم مدينة غزة بالترحيب وحسن الضيافة عندما استقبلهم أحد تجار المدينة واستضافهم في داره وقدم لهم الطعام (77). وينطبق الأمر ذاته لدى إقامتهم في مدينة الرملة حيث استضافهم الفقيه الشافعي محمد بن أبي الوفاء الأشعري الحسيني الذي تولى القضاء في مدينة القدس سابقًا، فقد استضافهم في منزله الذي وصفه العياشي بقوله "**مألف الأفاضل إليه يأوون، وعنده ينزلون وهو محترم يقصده الناس للزيارة، وأسلافه كانوا أهل فضل وبركة**" وقد خصص الحسيني مكانًا في منزله للوضوء والصلاة. فكان يقيم الصلوات الخمس فيه مع من حضر، وذكر العياشي بأنه كانَ رجلاً متواضعًا، فقد "صادفنا وقت اجتناء القطن عندهم، فكان يمتهن نفسه في ذلك مع من حضر في المنزل، ولا يأنف من ذلك". ومن شدة كرمه، فلم يشترِ العياشي ورفاقه طوال فترة إقامتهم عنده شيئًا ينفقونه على أنفسهم (78).

والتقى العياشي في مدينة القدس بقاضيها الشيخ محمد النفاتي التونسي، فقد أكرمه وأظهر غبطته وسروره بقدومه إلى مدينة القدس، وهيأ له ولرفاقه منزلاً يقيمون فيه طوال فترة إقامتهم بالمدينة، وأجرى لهم من الضيافة ما يليق بهم ويحث جوفه طوال إقامتهم، فكان يرسل لهم يوميًا الخبز واللحم بما يزيد عن حاجتهم (79).

وعند مروره بقرية بيت جبرين (80)، استضافهم أهلها وباتوا فيها ليلة، ثمّ انطلقوا حتى وصلوا قرية السوافير (81) فاستضافهم أهلها ضيافة حسنة تليق بهم، وناموا فيها

---

(77) **المصدر نفسه**، ص407.

(78) **المصدر نفسه**، ص415.

(79) المصدر نفسه، ص426.

(80) قرية بيت جبرين: وتقع عند نهاية السفوح الغربية لجبال الخليل على بعد 26 سم شمال غرب الخليل. **الموسوعة الفلسطينية**، القسم العام، 4 مجلدات، دمشق، هيئة الموسوعة الفلسطينية، 1996م، م1، ص445.

(81) قرية السوافير: وهي اسم لقرى ثلاث تعرف باسم السوافير الشرقية والسوافير الغربية والسوافير الشمالية تقع على السهل الساحلي على الطريق الممتد بين المجدل وغزة. وقد تم تدميرها كلياً بعد احتلال اليهود لها عام 1948. وليد الخالدي، كي لا ننسى – **قرى فلسطين المدمرة عام 1948**،

ليلة وعبر عن ذلك بقوله "**وأدخلونا دارًا خوفًا علينا من إذاية السراق**". وهو ما دفع العياشي للقول مادحًا الفلاحين في بلاد الشام عامة وقائلاً "**وفلاحة بلاد الشام كلهم أهل كرم وصدق ووفاء خلاف فلاحة مصر**" (82).

وبالرغم من مدحه للأهالي لما لاقاه عندهم من كرم ونخوة، فإنه أشار إلى بعض العادات السيئة التي لاحظها في مدينة غزة، فعند زيارته للمسجد الكبير في مدينة غزة، لاحظ عدم احترام الأهالي لحرمة المساجد، فقد كانَ لهذا المسجد بابان يؤدي أحدهما إلى السوق والآخر إلى الدور، لذا فإن من كانَ يريد الذهاب إلى السوق من الأهالي في الدور كانَ يمر بصحن المسجد بنعاله، كما كانَ الأهالي أيضًا يستعملون فيه الدخان الذي يشربونه، وهو ما دفع أحد المغاربة المجاورين هناك قائلاً من باب الدعابة "**إن هؤلاء لا يعدون المسجد إلاّ الحصير بنفسه فإنهم يحترمونه ما دام مبسوطًا ولا يطئونه بنعالهم، وما سوى المكان المفروش لا فرق عندهم بينه وبين الأزقة**" (83).

الأوضاع الأمنية :

يقدم لنا العياشي معلومات قيمة عن الأوضاع الأمنية في فلسطين خلال الفترة التي زارها فيها، فالطريق التي سلكها بين المدن كانت محفوفة بالمخاطر، وينتشر فيها قطاع الطرق، علاوة على القلاقل والتمردات على السلطة المحلية، ما يعكس ضعف نفوذ الدولة العثمانية في فلسطين ممثلة بحكامها الإداريين.

لقد أبدى العياشي تخوفه مسبقًا من سوء الأوضاع الأمنية وما قد يتعرض إليه وصحبه من أخطار وعبر عن ذلك بقوله "**كنا نرى الوصول إلى تلك الأماكن متعسرا أو متعذرًا على أمثالنا لقلة ذات اليد وعدم القدرة على مقاساة المشاق العظيمة التي يوجبها الانفراد على الطريق المألوف والسلوك في بلاد غير معهودة، والمعارف بها**

مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1997، ص547.جميل عبد الرحيم السحار، قرانا الفلسطينية المدمرة في لواءي غزة والرملة، مركز التأريخ والتوثيق الفلسطيني، غزة، 2011، ص63-72.

(82) العياشي، **المصدر نفسه**، م2، ص462.

(83) **المصدر نفسه**، م2، ص409.

الثلاثة قروش التي فرضها الشيخ بشير على كلّ حمل لهم بينما أخذ من الآخرين قرشين.

ويستمر العياشي في وصف أسلوب القرصنة الذي كانَ يمارسه البدو بحق الآخرين وبخاصة التجار، ويتضح ذلك عندما لاقوا جماعة معهم أحمال للتجارة فروا بها من الغفر، فوقعوا فريسة سهلة بيد جماعة الشيخ بشير الذين فرضوا عليهم دفع ضريبة الغفر (88).

وقبل وصولهم إلى غزة تركهم الشيخ بشير وجماعته وذلك تخوفًا من أن يقوم باشا غزة بالانتقام منهم إذ "قتلوا منه في الشهر الذي قبل هذا نحو ثلاثمائة، وسار الناس على حالة وجل ليلهم أجمع، لأن المحل موضع بين الفريقين" (89).

ويذكر العياشي أن أهالي غزة كانوا يتعرضون لهجمات واعتداءات متكررة من قبل القبائل البدوية التي كانت تهاجم القرى المحيطة بمدينة غزة، فكانوا يقومون بقطع الأشجار وسرقة المحاصيل الزراعية دونما مقاومة من قبل الحكومة المحلية الممثلة بالباشا (90) وفي ذلك دلالة على ضعف الحكومة وعدم قدرتها على مواجهة تعديات البدو وغاراتهم على الحواضر.

ولدى توجه العياشي وأصحابه لزيارة مدينة القدس، فقد صادفوا عددا من الأشخاص متحكمين على رؤوس الجبال في الطريق بين الرملة والقدس، وكانَ هؤلاء الرجال يأخذون ضريبة الغفر من المارين من تلك الطريق، ومع أن العياشي لم يذكر اسم هذا المكان غير أننا نرجح بأنه في قرية أبو غوش (91) فمن المعروف أن أهالي هذه القرية وتحديدًا عائلة أبو غوش التي تعرف القرية باسمها كانوا يمارسون قطع الطرق والاعتداء على المارة من ذلك الطريق وبخاصة الحجاج المسيحيين، ولما كانَ

---

(88) **المصدر نفسه**، م2، ص407.

(89) **المصدر نفسه**، م2، الصفحة ذاتها.

(90) **المصدر نفسه**، م2، ص408.

(91) قرية أبو غوش: وتعرف أيضًا باسم قرية العنب، وتقع على بعد 13كم غرب مدينة القدس بانحراف قليل نحو الشمال. مصطفى مراد الدباغ، **بلادنا فلسطين**، 10 أجزاء، كفر قرع، دار الهدى، 1991م، ج8، ق2، ص113.

مفقودة، والرفقة إليها غير مألوفة، والمخاوف فيها إن لم تحقق فهي مظنونة" (84).

ونظرًا لهذه المخاوف فقد قرر العياشي أن يسير مع الركب المصري إلى مصر ومن هناك يتجه إلى القدس، غير أنه غيّر رأيه بعد وصوله العقبة حيث وجد جماعة من مدينة غزة ينوون العودة إلى مدينتهم بعد أدائهم فريضة الحج، فاستأنس بهم بعد أن شجعه الحاج أحمد العجين الطرابلسي على مرافقة الغزيين والتوجه نحو القدس من العقبة بدلاً من مصر (85).

ويصور العياشي الوضع الأمني في غزة قبل انطلاقهم من العقبة، فقد كانَ من المقرر أن يرافق حجاج الركب الشامي إلى غزة الشيخ بشير شيخ عشيرة الوحيدات من بدو غزة، وكانَ برفقته عشرون فلاحًا مقابل أن يدفعوا فارسًا مقابل أن يدفعوا له إتاوة غير أن الحجاج رفضوا ذلك خوفًا من غدره وعدوانه سيما أن "هؤلاء الأعراب قاموا على عسكر غزة في هذه السنة، ووقع بينهم وبينه قتال، ونهبوا عسكر أمير غزة، وخرجوا عن طاعته فلذلك خاف منهم الحجاج الشاميون". غير أن الحاج حسن الغربي المسؤول عن حجاج غزة أقنعهم بمرافقة الأعراب على ضمانته بحكم معرفته بالشيخ بشير، فوافقوا بعد أن "ذهبوا به إلى أمير الحاج المصري حتى تكفل لهم بذلك بين يديه، وكتبوا عليه سجلاً" (86). وبالرغم من ذلك فإن بعض الحجيج لم يطمئن لذلك ولم يأمنوا الذهاب معه، فذهبوا إلى مصر.

ويروي العياشي ما حصل من الأعراب المرافقين لهم في الطريق إذ أخذوا يقومون بتعداد الإبل المرافقة لهم وذلك لأخذ ضريبة الغفر، فأخذوا على كلّ حمل قرشين، وعلى كلّ حمل من جمال الفلاحين ثلاثة قروش (87). ولا شك أن هذه الضريبة هي نوع من أنواع الخاوة والأتاوة التي يفرضها البدو على الناس، علاوة على ابتزازهم للفلاحين إذ لا ينقل لنا العياشي أي اعتراض من قبل الفلاحين على مبلغ

---

(84) المصدر نفسه، م2، ص404.

(85) المصدر نفسه، م2، ص404.

(86) المصدر نفسه، م2، ص405.

(87) المصدر نفسه، م2، ص406.

العياشي وأصحابه يغطون رؤوسهم بمظلات من شجر الدوم فقد اعتقد هؤلاء بأنهم مسيحيون، فصاحوا عليهم من أعلى الجبل يسبونهم ويشتمونهم، ولما استفسر العياشي من المكاري الذي كان برفقتهم بماذا يتفوهون فأبلغه بعد تردد بأنهم "لما رأوا ما ظللتم به على رؤوسكم ظنوا أنكم نصارى فجعلوا يسبونكم" (92).

ويذكر العياشي أنه بعد أن انتهى من زيارة مدينة الخليل وأراد التوجه لمدينة غزة فقد انتظر رفقة عدة فرسان ليسير وصحبه معهم خوفًا من أن يتعرضوا إلى أي أذى في الطريق "لأن المحل مخوف، وغالب أهله متلصصون" (93) وقد أخبرهم من سافر معهم من أهل الخليل بأن جماعة من اللصوص وقطّاع الطرق طلبوا منه بأن يوافق على سلب العياشي وجماعته فيأخذوا أمتعتهم بينما يأخذ هو ما معهم من ذهب، غير أنهم لم يتعرضوا لأي أذى سيما أن الشيخ إبراهيم المرواني شيخ الحرم الإبراهيمي قد أوصى من كانَ برفقتهم بأن يهتم بهم ويحميهم من أي اعتداء (94).

ويصف العياشي الطريق التي سلكوها بين غياض وسهول وقرى، إلى أن فارقوا الجبل واستقبلتهم أرض جرداء، فساروا فيها وهم خائفين من البدو، حتى وصلوا قرية السوافير. ثمّ غادروها بعد أن ناموا فيها ليلة فساروا "خائفين إلى أن قربنا من مدينة غزة فلقينا هناك بيرقًا معه خيل كثيرة، سرنا فيها بقية يومنا خائفين من العرب لأنهم يغيرون في ذلك المحل لما وقع بينهم وبين باشة البلد" (95).

وبعد أن مكث العياشي في غزة بضعة أيام قرر التوجه إلى مصر سيما أنه شعر بعدم الأمان وانعدام الأمن، فازداد الوضع تدهورًا نتيجة قيام البدو بمهاجمة ضواحي غزة ونهب الأهالي دون أن يبدي الباشا أية مقاومة (96)، فتسلل العياشي ومن كانَ معه ممن كانت له قدرة على المشي، فساروا ليلاً بمحاذاة الساحل حتى وصلوا إلى خان يونس، فمكثوا فيها ثلاثة أيام حتى اشتد الأمر عليهم أكثر مما كانَ عليه الحال في

---

(92) العياشي، **المصدر نفسه**، م2، ص420.
(93) **المصدر نفسه**، م2، ص426.
(94) **المصدر نفسه**، م2، ص462.
(95) **المصدر نفسه**، م2، ص462.
(96) **المصدر نفسه**، م2، ص465.

غزة (97). بعد ذلك ساروا وهم خائفون من اعتداءات البدو وقطّاع الطرق عليهم حتى وصلوا إلى العريش.

الأوضاع الاقتصادية :

لم يبد العياشي اهتماما بالجوانب الاقتصادية في المدن التي زارها، إذ لم يكن الجانب الاقتصادي من بين اهتماماته، فهدفه كانَ بالأساس هدفًا دينيًا. ومع ذلك فقد ورد بأن في رحلته إشارات متفرقة عن بعض الجوانب الاقتصادية، والمعاملات التجارية، فيستدل من نصوص الرحلة بأن أهم العملات التي كانت متداولة في المدن الفلسطينية كانَ القرش (98) ومن أجزاء القطعة (99) أو ما يعرف باسم البارة (100) أو الفضة (101).

ورغم إشارات العياشي لأسواق بعض المدن التي زارها فإنه لم يشر إلى أسعار البضائع والسلع، غير أنه أشار لدى زيارته لمدينة غزة بأن الأسعار كانت رخيصة فما قاله: "**ورأينا من غزة بلدًا فسيحًا ومنظرًا رائقًا، وأسواقًا حافلة، وأسعارًا رخيصة**" (102).

وتضمنت الرحلة إشارات عدّة حول الأوزان والمكاييل والمقاييس التي كانَ يستخدمها الأهالي خلال الفترة التي زار فيها العياشي فلسطين، فمن الأوزان أشار

---

(97) **المصدر نفسه**، م2، ص466.

(98) القرش: تحريف للكلمة اللاتينية كروشين، وقد تم سك القروش في الدولة العثمانية لأول مرة عام 1688 م في عهد السلطان سليم الثاني وذلك بدلاًمن القرش الأوروبي، ويساوي القرش الواحد 40 بارة، انظر : هاملتون جب وهارولد بوين، **المجتمع الاسلامي والغرب**، ترجمة عبد المجيد القيسي، 2ج، دار المدى، دمشق، 1997، ج2، ص 58، ص 62. سيد محمد السيد محمود، النقود العثمانية، مكتبة الآداب، القاهرة، 2003، ص 37.

(99) العياشي، المصدر نفسه، ص49.

(100) البارة: كلمة فارسية تعني شقة أو قطعة أو جزءًا، وتعتبر أصغر وحدة نقدية عثمانية، وتساوي كلّ أربعين بارة أو قطعة أو فضة قرشًا واحدًا. خليل الساحلي، النقود في البلاد العربية في العهد العثماني، **مجلة كليّة الآداب**، الجامعة الأردنية، م2، 1971، ص107.

(101) العياشي، المصدر نفسه، م2، ص465.

(102) **المصدر نفسه**، م2، ص408.

العياشي إليها الحمل (103)، بينما كانَ من المقاييس الفرسخ فقد ذكر بأن المسافة بين غزة والبحر نحو فرسخ، بينما تقدر المسافة بين عسقلان وغزة نحو ثلاثة فراسخ (104) وتبعد مدينة الرملة عن البحر نحو فرسخ (105). كما أشار إلى الخطوة كمقياس، فذكر بأنه يحيط بالصخرة المشرفة شباك من خشب دوره نحو من تسعين خطوة (106) وأشار أيضًا إلى المرحلة فالمسافة بين القدس ومقام النبي موسى نحو من نصف مرحلة أو أكثر من ذلك (107). كما استخدم الذراع كمقياس، فذكر العياشي بأنه يحيط قبر كلّ من الصحابيين شداد بن أوس وعبادة بن الصامت صخرة عظيمة منحوتة طولها نحو من أربعة عشر ذراعًا وعرضها نحو ذراعين (108). وأورد العياشي عددا من الإشارات المتعلقة بالزراعة فقد لاحظ وجود مساحات من الأراضي في غزة مزروعة بأشجار الفاكهة (109) وانتشرت فيها البساتين والجنائن التي يقع معظمها من جهة البحر (110). وانتشرت أيضًا مزارع الفاكهة في الرملة، ويعود الفضل في ذلك إلى الشيخ خير الدين الرملي إمام الحنفية ومفتيهم فيها، وقد ذكر للعياشي بأنه غرس بيده أكثر من مائة ألف شجرة أطعمت جميعها وأكل من ثمرها، ويعلق العياشي على ذلك بقوله "**وهذا أغرب ما يكون، وما سمعنا بمثله**" (111). ويضيف العياشي أن الشيخ الرملي ذكر له بأنه عندما جاء إلى الرملة لم يكن فيها أشجار فواكه إلاّ القليل، وعندما أخذ يعمل بزراعة الأشجار أخذ الكثير من الأهالي يحذون حذوه حتى صارت الرملة من أكثر بلاد الساحل فاكهة (112).

---

(103) **المصدر نفسه**، م2، ص406.

(104) **المصدر نفسه**، م2، ص413.

(105) **المصدر نفسه**، م2، ص419.

(106) **المصدر نفسه**، م2، ص426.

(107) **المصدر نفسه**، م2، ص424.

(108) **المصدر نفسه**، م2، ص424.

(109) **المصدر نفسه**، م2، ص408.

(110) **المصدر نفسه**، م2، ص413.

(111) **المصدر نفسه**، م2، ص416.

(112) **المصدر نفسه**، م2، الصفحة ذاتها.

ويصف العياشي الطريق التي سلكها من الرملة باتجاه القدس بأنها أرض وعرة غير أنها تضم على ناحيتها "قرى ذات كروم" (113).

وتضمنت رحلة العياشي إشارات تتعلق بوجود خانات على الطرق الرئيسة لاستراحة القوافل ومن أهمها خان أسدود ووصفه بأنه "منزل معلوم تنزله القوافل الآتية من مصر على الطريق السلطاني أو من الشام، ولهم منازل معلومة لا يتعدونها، طالت الرحلة أم قصرت، وبجانب هذا الخان مسجد فيه قبر ولي الله تعالى الشيخ إبراهيم المتبولي وإلى جانبه من جهة القبلة مسجد صغير تحته مغارة يُقال إن فيها قبر سلمان الفارسي، ونزلنا في ذلك المنزل وصلينا به الظهر والعصر والمغرب والعشاء" (114). ومن الخانات التي أشار إليها خان يونس، حيث نزل ومن كانَ معه في "عليّة على باب الخان" وذكر بأنهم أقاموا فيه ثلاثة أيام ثمّ اتجهوا نحو العريش (115).

وأورد العياشي معلومات قيمة عن وسائل النقل المستخدمة آنذاك وتمثلت بالحيوانات كالجمال والحمير، ويتم اكتراء هذه الدواب للسفر من مكان إلى آخر ويرافقهم دليل يسمى ب "المكاري" حيث يكون خبيرًا بالطرق التي ينبغي سلوكها. فعندما انطلقوا من العقبة باتجاه غزة اكترى لهم الحاج أحمد العجين الطرابلسي جملين للركوب وحمل الماء من رجل اسمه صبح الرباب من عرب الحكوك الذين يقطنون في تلك الناحية (116) أما المكاري الذي رافقهم فكان يدعى سليمان وهو ابن أخ صبح الرباب (117). وبالرغم من سلوكهم في طريق يفترض أن يكون محفوفًا بالمخاطر حتى وصلوا إلى فم النقب فإنهم لم يروا في طريقهم "لصًّا ولا سارقًا ولا طارقًا، إلاّ طارقًا يطرق بخير لأن غالب المكاريين من عرب تلك الناحية، وكلّ من في تلك الناحية من الأعراب في درك خفير الركب بشير" (118).

---

(113) المصدر نفسه، م2، ص420.

(114) المصدر نفسه، م2، ص415.

(115) المصدر نفسه، م2، ص465.

(116) المصدر نفسه، م2، ص404.

(117) المصدر نفسه، م2، ص406.

(118) المصدر نفسه، م2، ص406.

وبعد مغادرة العياشي ورفاقه غزة باتجاه الرملة اكتروا حمارين وتركوا بعض ما سيثقل من حوائجهم (119). والأمر ذاته أيضًا لدى مغادرتهم لمدينة الخليل (120). ومع أنه لم يشر إلى قيمة الأجرة هنا، فإنه ذكر ذلك عندما حزموا أمتعتهم للعودة إلى مصر، فقبل انطلاقهم من غزة اكتروا أربعة حمير بمبلغ مقداره اثني عشر فضة (121).

وفي خاتمة هذه الدراسة فإن الرحلة العياشية تُعد مصدرًا هامًا يمدنا بمعلومات قيمة عن مختلف جوانب الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة والأمنيّة والثقافيّة في فلسطين خلال القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي. فقد اشتملت هذه الرحلة على نصوص وأشعار وذكر لعلماء ووصف لمساجد ومزارات ومشاهد دينيّة لا ترد في كثير من كتب الرحالة الذين زاروا المنطقة بعد زيارة العياشي لها.

د. بنان محمد حسين صلاح الدين
كليّة الآداب – قسم اللغة العربية وآدابها – جامعة القدس

(119) المصدر نفسه، م2، ص414.
(120) المصدر نفسه، م2، ص461.
(121) المصدر نفسه، م2، ص465.

deuxième moitié du XVIe s 307

- Omar, Yousef Hussein Yousef. - Bismarck's Policy towards the Ottoman State (1871-1890) 341

- Maslout, Salah Hassen.- Le conflit anglo-ottoman et les conséquences de la première guerre mondiale en Egypte (1914-1918) 397

- Louhichi, Soumaya.- Instrumentalisation idéologique de la personnalité du Sultan Abdelhamid II dans les écrits arabes contemporains 421

Lectures :

- Abu Qaiyd, Ahlam Ali Ahmed. - Views on the book *Mekka in the Latter Part of the 19th Century* by Christiaan Snouck Hurgronje 463

- Bouhend, Khaled. - L'image d'Oman à travers la revue *Al-Minhaj* d'Abu Ishaq Ibrahim Atfaiyish (1925-1930) 473

Résumés de quelques études publiées en français 483

Axe 1 : Palestine à l'époque ottomane

- Salaheddine, Banan M. Hassine.- La Palestine au XVIIe siècle d'après le récit de voyage d'El-Ayachi 17

- Al-Hizmawi, Muhammad Majid. - Residential Buildings in the Ottoman Nablus during the Tanzimat- (1839-1878) 43

- ABBASI, Nidam Ezzet. - The Developments of the Historical Events Influenced the Palestinian Hajj Missions from Palestine to the Holy land, since early beginning of modern centuries 121

- Hizmawi, Mohamed Majed.- Les mémoires comme source d'histoire de Jérusalem: Les mémoires du musicien Ouassef Jawhariya 151

Axe 1 : La régence d'Alger à l'époque ottomane

- Ablali, Asma.- Les réactions locales sur l'établissement du pouvoir des Turco-ottomans en Algérie 205

- Aït Habouch, Hamid.- Lumières sur le royaume de Koukou: Les conditions de sa création et son développement sous l'ombre des Ottomans en Algérie . 225

- Tablit, Ali.- La marine algérienne à l'époque moderne 239

- Attia, Mohamed.- Les conditions de la catastrophe des flottes d'Alger et de Tunis à Valona en 1638 273

- Ramoum, Mahfoudh.- La propriété de la terre et les taxes à Alger aux XVIIe et XVIIIe siècles 287

Etudes diverses :

- Manari, Mouayad.- Abou Tayeb Tej El-Khaddar: Sa biographie, son rôle dans les campagnes Ottomanes en Tunisie et ses relations avec les Turcs pendant la

de Tunis à l'époque ottomane d'après le manuscrit 18067 (BNT) 143

Repères :

- Baralt, Luce López & Mami, Ridha. - hommage au professeur A. Temimi : de la protection des morisques par Abou El Gaith El Kachach à la création en Tunisie des plus actifs laboratoires d'études morisques aujourd'hui dans le monde : contexte et portée 165

- Ben Abboud, Mhammed. - Prof. Abdeljelil Temimi as a Great Historian 175

Résumés de quelques études publiées en arabe :

- Abu Qaiyd, Ahlam Ali Ahmed. - Views on the book *Mekka in the Latter Part of the 19th Century* by Christiaan Snouck Hurgronje..... 179

- Al-Hizmawi, Muhammad Majid. - Residential Buildings in the Ottoman Nablus during the Tanzimat- (1839-1878) 181

- Manari, Mouayad.- Abou Tayeb Tej El-Khaddar: His biography, his role in the Ottoman campaigns in Tunisia and his relations with the Turks during the second half of the XVIth century 181

- Omar, Yousef Hussein Yousef. - Bismarck's Policy towards the Ottoman State (1871-1890) 182

2- Partie arabe

- Temimi, Abdeljelil. – L'Arab Historical Review for Ottoman Studies : Reflet de la recherche historique sur l'époque ottomane 9

TABLE DES MATIERES

1- Partie française & anglaise

Pages

- Temimi, Abdeljelil. – L'*Arab Historical Review for Ottoman Studies*: Reflet de la recherche historique sur l'époque ottomane 9

Etudes:

- Abbassi, Nizam Izzet. - Le pèlerinage de la Palestine aux lieux saints au regard des développements historiques et leurs conséquences à l'époque ottomane (traduit de l'arabe par : Nadia Temimi) 17

- Arnoulet, François. - les Tunisiens et la guerre 1914-1918 47

- El Hadj, Jamel. - La politique sanitaire française en Méditerranée au XVIIe et XVIIIe siècles, l'exemple de la Régence de Tunis 53

- El Maslout, Salah Hasan. - Les conséquences de la Première Guerre mondiale en Egypte à travers le conflit anglo-ottoman (1914-1918) (Traduit de l'arabe par : Sonia Temimi, Université de Tunis) 77

- Jadla, Brahim. -Tunisia of the mid-19th Century in the Eyes of an American Consul : Amos Perry in Tunis (1862–1867) 101

Notes et documents:

- Bouhend, Khaled. - L'image d'Oman à travers la revue *Al-Minhaj* d'Abu Ishaq Ibrahim Atfaiyish (1925-1930) (traduit de l'arabe par : Nadia Temimi) 133

- Jadla, Brahim. -L'expertise judiciaire dans la Région

Arab Historical Review For Ottoman Studies

Fondateur et Rédacteur en Chef :
Abdeljelil TEMIMI
Professeur Emérite à la Faculté des Sciences Humaines et Sociales
de l'Université de Tunis

Comité Consultatif :
- Prof. Faïsal El-Kandari
- Dr. Mohamed Dhifallah
- Dr. Sonia Temimi

© FTERSI ; Décembre, 2017.

Toutes reproductions, même partielles ou adaptations d'un extrait quelconque de ce volume, par quelque procédé que ce soit et notamment par photocopie, microfilm ou autres procédés électroniques, sont interdites pour tous pays.

- Les opinions émises par les auteurs n'engagent pas la responsabilité de la Revue, que les institutions arabes et internationales respectent cette règle !

- L'AHROS paraît en deux numéros par an ; elle est ouverte à toutes les participations scientifiques, en français, en arabe et en anglais.

- La composition de ce volume a été réalisée sur l'Unité Informatique de la FTERSI ; le tirage, limité à 80 exemplaires, a été réalisé à l'Imprimerie Maghrébine pour l'impression à Tunis en Décembre, 2017.

- Pour toute information et commande, s'adresser au nouveau siège de la Fondation : *Immeuble Imtiyaz – Centre Urbain Nord A 25 – 1003 Tunis.*

Tél. à partir de Tunisie : 71 231 444

de l'étranger : 00216 71 231 444

Fax à partir de Tunisie: 71 236 677 ; de l'étranger: 00216 71 236 677

E. Mail : fondationtemimi@yahoo.fr/ fondationtemimi@gnet.tn

Internet : //www.fondationtemimi.tn (français/عربي)

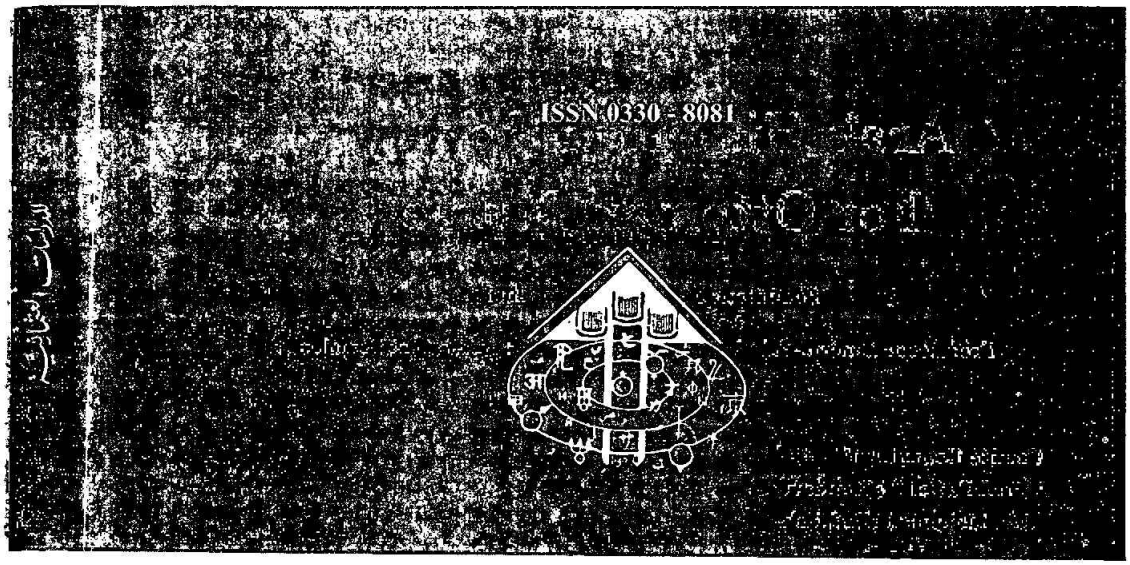

Arab Historical Review for Ottoman Studies

N° 56-55 العددين